

بيديك، أنا لك وإليك، أستغفرك وأتوب إليك، أمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وأمنت اللهم بما أنزلت من كتاب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي، وعلى آله وسلم كثيراً، خاتم كلامي ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا رب العالمين. اللهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشروباً رويماً، سائغاً هنيئاً، لانظماً بعده أبدأ، واحشرنا في زمرة غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين ولا مرتابين، ولا مفتونين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين. اللهم اعصمني من فتن الدنيا، ووفقني لما تحب وترضى من العمل، وأصلح لى شأنى كله، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تضلنى وإن كنت ظالماً. سبحانك سبحانك يا على يا عظيم، يا بارياً يارحيم، يا عزيز يا جبار، سبحان من سبحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراقها، وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن ومن عليهن، سبحانك سبحانك يا حى يا حلیم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تحيى وتميت وأنت حى لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شىء قدير.

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربعاء يوم الجمعة فقد كمل الله عز وجل عمله، وتم عليه فضله، فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيباً موفوراً، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عز وجل مشكوراً، وهذا آخر كتاب الجمعة وهيأتها وأدائها.

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من

الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص

قال الله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة جاء فى التفسير الصبر يعنى الصوم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى رمضان شهر الصبر، لأن الصبر حبس النفس عن الهوى وإيقافها وحبسها على أمر المولى. وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر. وقال الله تعالى واستعينوا بالصبر، قيل معناه على مجاهدة النفس، وقيل على مصابرة العدو. وقال بعض العلماء استعينوا بالصبر على الزهادة فى الدنيا بالصوم، لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصوم مفتاح الزهد فى الدنيا وباب العبادة للمولى، لأنه منع النفس عن ملازها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد

بدخوله في الزهد وشغله بالعبادة، ولذلك جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما في المعنى، فقال إن الله عز وجل يباهي ملائكته بالشباب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته من أجلّي، المبتذل شبابه لي، أنت عندي كبعض ملائكتي . وقال في الصائم مثل ذلك، يقول عز وجل يا ملائكتي انظروا إلي عبيدي، ترك شهوته واذته وطعامه وشرابه من أجلّي - ففي الصوم عون على مجاهدة النفس وقطع حظوظها ومنع عاداتها، وفيه إضعاف لها ونقصان لهواها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزئ به، فأضافه عز وجل إليه تفضيلاً له وتخصيصاً، كما قال تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، وكما قال إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها. فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره وله كل شيء . كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده وأحبها إليه، لأن فيه خلقاً من أخلاق الصمدية، ولأنه من أعمال السرّ بحيث لا يطلع عليه إلا هو أضافه لنفسه. وقيل ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويقع فيه قصاص ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص. ويقول الله عز وجل يوم القيامة هذا لي فلا يقتص منه أحد شيئاً. يقال ما من عمل إلا وله جزاء معلوم إلا الصوم فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب يُفرغ له إ فراغاً ويجازف مجازفةً، وهو أحد الوجوه في قوله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون، قيل كان عملهم الصيام. وكذلك في تأويل قوله عز وجل السائحون، قيل هم الصائمون كأنهم ساحوا إلى ربهم عز وجل بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشرابهم فأواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرة أعين جزاء لعملهم. وقال تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، قيل الصائمون.

والصبر اسم من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم في نفسه أخفى الله عز وجل جزاء إياه عن غير نفسه. وفي الحديث من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، فالصوم ذكر الله عز وجل وهو سر. ولست أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نسقاً فإن ذلك يقسى القلب ويغير الحال ويؤد العادات ويفتق الشهوات، ولأنه لم يؤمر ولم ينسب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهي النحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر، وإن أحب فليصم يومين ويفطر يوماً وذلك صوم ثلثي الدهر، فإن أحب فليصم يوماً

ويُفطر يومين وهذا صيام ثلث الدهر. وهذه طريق الصائمين وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار. فإن صام ثلاثاً من أول الشهر وثلاثاً من وسطه وثلاثاً من آخره فحسن، فإن صام الاثنتين والأخمسة والجُمع فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض وأول يوم من الشهر وآخر يوم منه، وأفضل الصيام ما كان في الأشهر الحرم، وأفضل ذلك ما وقع في العشرين منها وهو المحرم وذو الحجة، وبعد ذلك ما كان في شعبان فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان، ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس.

وفي الخبر أفضل الصيام بعد شهر رمضان وشهر الله المحرم. وصوم النصف الأول من شهر شعبان مستحب، وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خير إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان. وليفطر قبل رمضان أياماً، فإن وصل شعبان برمضان فجائز، ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كله لئلا يضاهى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطروا منه أياماً.

وقد كره قوم صيام الدهر كله، ووردت أخبار في كراهته، وقد تَوَلَّى ذلك بأنهم كانوا يصومون السنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاح قلبه وانكسار نفسه واستقامة حاله في صوم الدهر فليصمه، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه، فقد روينا عن سعيد عن قتادة عن أبي تميمه الهجيمي عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين، معناه لم يكن له فيها موضع. وقد دلت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقات من السلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلا أن يكون الرجل يرغب عن السنّة ولا يرى الرخصة في الإفطار فيُكره له صوم الدهر للمعاندة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسعة في الدين، وأخبر الله عز وجل بأنه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعمزئمه، وفي لفظ آخر يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. وقد دلت الأخبار على فضل صوم نصف الدهر بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك ليكون العبد بين حالين، حال صبر وحال شكر. ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض

فرددتها فقلت أجوع يوماً وأشبع يوماً، أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صيام أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ومن ذلك منازلته عليه السلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم وهو يقول إنى أريد أفضل من ذلك، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم صُم يوماً وأفطر يوماً، قال أريد أفضل من ذلك، قال لا أفضلَ من ذلك.

وروى فى الخبر صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين يوماً من غيره، وصوم يوم من رمضان أفضل من صوم ثلاثين يوماً من شهر حرام. وفى حديثٍ من صام ثلاثة أيام من شهر حرام، الخميس والجمعة والسبت، كتب الله تعالى له عبادة سبعمئة عام. وقد روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان، بل كان يفطر منه ، وقد وصل مرة شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مراراً من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيام جماعة من السلف الصالح، وفى كل منه ورد فيه فضائل يكثر ذكرها، وكذلك فى جميع ما نذكره من أعمال القلوب والجوارح فى الأيام والليالى ، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين. وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات إلا أننا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبتنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال ، إنما طريقنا تهذيب قلوب العَمال، فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال وتقرب العاملون من ذى الجلال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ذكر صوم الخصوص من الموقنين

إعلم وفقك الله تعالى أن الصوم عند الصائمين هو صوم القلب، فأنما صوم الخصوص من الموقنين فإن الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهم الدنيئة والأفكار الدنيوية، ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدى الحدود، وصوم اليد والرجل عن البطش والسعى فى أسباب النهى، فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جملة يومه، وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كله بالذكر. ولمثل هذا قيل نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح. وقد قرن الله عز وجل الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن فى المسموعات والمقولات حراماً على المستمع والإصغاء إليه، وحراماً على القائل النطق به، ما قرنهما إلى أكل الحرام وهو من الكبائر، فقال تعالى سمعون للكذب أكألون للسُّحت، وقال سبحانه وتعالى لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت - فالعبد الحافظ لحدود الله عز وجل إن أفطر بالاكل

والجماع فهو صائم عند الله في الفضل للاتباع ، ومن صام من الأكل والجماع وتعدى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عز وجل صائم عند نفسه ، لأن ما أضاع أحب إلى الله عز وجل وأكثر مما حفظ . ومثل من صام من الأكل وأفطر بمخالفة الأمر بسائر الجوارح مثل من مسح كل عضو من أعضائه في وضوئه ثلاثا ثلاثا ثم صلى ، فقد وافق الفضل في العدد إلا أنه تارك للفرض من الغسل ، فصلاته مردودة عليه لجهله وهو مغتر بفعله . ومثل من أفطر بالأكل وصام بجراحه عن النهي مثل من غسل كل عضو من أعضائه في وضوئه مرة مرة فهو تارك للفضل في العدد إلا أنه مكمل للفرض مُحسن في العمل ، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل ولعمله بالعلم . ومثل من صام من الأكل والجماع وحفظ جوارحه عن الآثام كمثل من غسل كل عضو ثلاثا ثلاثا فقد تم الفرض وأحسن بتكملة الفضل، فهذا كما قال تعالى تماما على الذي أحسن ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوضوء كذلك - هذا وضوئي، ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم عليه السلام. وقد قال الله تعالى ملة أبيكم إبراهيم ، أى عليكم بها فائتموا واقتنوا به فيها . وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر . وجاء في الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنجدهما الجوع والعطش في آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يستأذناه في الإفطار ، فأرسل إليهما قدحاً وقال قل لهما قياً فيه ما أكلتما ، قال فقاعت إحداهما نصفه وما غبيطاً ولحماً عريضاً ، وقاعت الأخرى مثل ذلك حتى ملأته ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله عز وجل لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عز وجل عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلا يفتابان الناس ، فهذا ما أكلا من لحومهم .

وكان أبو الدرداء يقول يا حبذا نوم الأكياس وفطرمهم ، يعييون صوم الحمقى وسهرهم ، ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين . وكل محظور عليك أن تتفوه به فمحظور عليك أن تستمع إليه . وكل حرام عليك أن تفعله فمكروه أن تنتظر إليه أو يخطر ببالك . وقد سوي الله عز وجل بين المستمع والقائل في قوله تعالى إنكم إذا مثلهم .

ومثل الصائم مثل التوبة لأن الصبر من أوصافها، وإنما كانت التوبة مكفرة لما سلف من السيئات لأجل أنه صبر عما سلف من سيء العادات، ثم اعتقد ترك العود إلى مثل ما سلف بصيانة جوارحه التي كانت طرائق المكروهات، كذلك كان الصيام جنة من النار، وفضيلة من

درجات الأبرار إذا صبر عليه الصائم، فحفظ جوارحه فيه من المأثم، فإذا أمرحها فى الأثام كان كالتائب المتردد الناقض للميثاق، لم تكن تويته نصوحا، ولا كان صوم هذا صالحا وصحيحا. ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة من النار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة - وأمره فى قوله عليه السلام - إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإن أمرؤ شاتمته فليقل إنى صائم. وفى لفظ آخر لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء، أى يتحفظ فى صومه لحرمة. وفى خبر آخر الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته، فحفظ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبى صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية إن الله يأمركم أن تؤبوا الأمانات إلى أهلها - وضع يده على سمعه وبصره فقال السمع أمانة، والبصر أمانة، فذلك مجاز قوله فليقل إنى صائم، أى يذكر الأمانة التى حمل فيؤديها إلى أهلها. ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهى خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها. وحقيقة حفظ السر نسيانه، وضياع السر ان يكثر خزانته، فحقيقة الصائم أن يكون ناسياً لصومه لا ينتظر الوقت شغلا عنه بالمؤقت .

الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت

قال الله عز وجل ونضع الموازين القسط ليوم القيامة إلى قوله آتينا بها وكفى بنا حاسبين، وقرئت آتينا بها ممدودة أى جازينا بها ، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ . وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليرؤا أعمالهم الآية . وأوصى أبو بكر عمر رضى الله عنهما عند موته فقال إن الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، وإن الباطل خفيف وهو مع خفته ريبء ، وإن لله عز وجل حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجرت على واحد منهم مال جورك بعدك ، فإن حفظت وصيتى لم يكن شيء أحب إليك من الموت وهو مدرك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن شيء أبغض إليك من الموت وإن تعجزه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، وإنما خف الحساب فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، فمحاسبة النفس تكون بالورع ، والموازنة تكون بمشاهدة اليقين ، والتزين للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر ، وهو حقيقة